اليسوعيين لالقاء عظات الرياضات في القرى

ولعل امر انشاء دير في حوران كان دخل في حيز العمل لولا الحوادث الاخيرة التي اوقفت مجرى الاعمال . على اننا لا نريد ان نختم هذه النبذة من دون ما نذكر اسمي الابوين دي لاموط (de la Mothe) وفولوا (Foulloy) الشابين اللذين جاءا الشرق للقيام بالخدمة العسكرية وهما يعلمان في كلية القديس يوسف فلمّا ثارت الفتنة واضطرتها الى حمل السلاح سارا مع الحملة العسكرية للقيام بواجبهم الوطني . فوقعا ضحية الواجب والشرف في اول موقعة جرت بين الدروز والافرنسيين

ونرفع الى ذويهما الكرام عواطف عزائنا واعجابنا بالشهامة الافرنسية الا اننا نتعزى لعلمنا انهما بدمهما الطاهر قد عملا في سبيل تحرير النفوس من رقّ الخطيئة اكثر من الذين قضوا سنين في الرسالة لانه ما من محبة اعظم من ان يبذل الانسان نفسه حبًّا بالله وبالقريب . وقد بذلا حياتهما لاجل خلاص النفوس التي من اجلها حملا السلاح طاعةً لارادة الله كما صرّح الاب دي لاموط في كتاب حرّره بضعة ايّام قبل وفاته . وحيث تُربت الارض دم الشهداء هناك تأتي ثمارها الغزيرة حقق الله الآمال

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الباب الرابع

تاريخ بيروت في عهد ممالك مصر (١٢٩١–١٥١٥) (تتمة)

وفي أيام الاشرف ناصر الدين شعبان سنة ٧٦٧ (ايلول ١٣٦٥) غزا ملك قبرس هرغو الرابع دي لوسنيان ثغر الاسكندريّة في سبعين مركباً ودخلوا المدينة ونهبوا اسواقها وبيوتها وقتلوا جماعة من اهلها وحرقوا باب رشيد ثمّ اقلعوا الى جزيرتهم . فارسل

الاتابكي يلبغا العُمري الاوامر الى الامير بيدمر الخوارزمي بالتوجه الى بيروت وتجهيز اسطول كبير من غابتها لفتح قبرس قال صالح بن يحيى في تاريخه (ص ٥٢–٥٣):

« فحضر (بيدمر) الى بيروت واحضر صنّاعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمًّا غفيرًا وقيل انهُ لم يُعهَد قطّ عمارةٌ مثلها عظمًا وسرعةً وكثرة صنّاع وقوّة عزم . فعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت به الى اليوم. وكانت المراكب تُسحَل بها على بُعد من البحر. وحضر عسكر الشام منجرّدًا فأنزلوه فيما بين البحر والمراكب حذرًا من مراكب صاحب قبرس لئلّا يحضر العدوّ حين غفلة فيحرقوا ما يُعمَل من المراكب. وكان نائب الشام في ذلك الوقت أقتمر عبد الغنيّ . ولمّا توفي يَلبُغا العُمري في ليلة الاحد العاشر من ربيع الآخر ٧٥٨ (اواسط كانون الاوّل ١٣٥٦) أُبطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب الى البحر سوى حمّالتين كبيرتين الواحدة باسم سُنقر والثانية باسم قراجا وهما اميران من امراء ذلك الوقت. وكان الامير بيدمر قد استعجل القومَ على عمارتها ليجهّزها فيُسخّرها صواري وقرايا ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمّروها. ثمّ بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا. وكذلك تلفت بقيّة الشواني التي لم تنزل الى البحر تحت المسطبة المذكورة. وكان قد صُرف عليها مال كثير فذهب سدًى لم يُستفَد منها سوى الحديد بعد ما اخذت الناس منهُ شيئًا كثيرًا »

والحق يقال ان بيروت كانت في حاجة الى اسطول يردُّ عنها غارات القرصان من جنويّين وبنادقة وكتلان وبيزان الذين تهدّدوا المدينة غير مرّة وكادوا يستولون عليها . فممّا ذكرهُ المؤرخون نزول الجنويين الى بيروت في السنة ٧٨٤ هـ . وقد روى الخبر صالح بن يحيى بتفاصيله فننقلهُ عنهُ بالحرف لما فيه من الفوائد التاريخيّة ومن اوصاف بيروت في عصر المماليك المصريين قال (ص ٥٣–٥٥):

« في العشر الاوسط من جمادى الآخرة سنة اربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢م) حضرت تسيرة الجنويّة الى صيداء فاخذتها وجاءت الى بيروت وكانوا سمعوا في دمشق بخبر حضورها الى صيداء. فقال مالك الامراء بيدمر: صيداء ما بقينا ناخذها لكننا نروح لنلحق بيروت : فوافق حضورُ العساكر الشاميّة الى بيروت حضورَ التسيرة فلم يتعرّض اصحابها للنزول الى البرّ وتوجّهت التسيرة الى جهة قبرس والمانوصة

« ثمّ رجع العسكر الى دمشق وتأخر منهُ شرذمةٌ وجماعة من الامراء . . . ثمّ انّ التسيرة المذكورة آنفًا غابت اياماً قلائل وعاد الجنويّون الى بيروت بعد ان تركوا في المانوصة بعض مراكب صغار ومراكب نوافذ كبيرها من صيداء وفي طريقهم مع ما كانوا غنموهُ من صيداء. فحضر الى بيروت اثنا عشر غرابًا كبيرًا ودخلوا الميناء وكان فيها قرقورتان للبنادقة فاخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدّموهما حتى تمكّن الرُّماة منهم بالجروخ والحجارة من صواريها على برج بيروت الصغير البلطي. ولم يكن في ذلك الوقت بُني البرج الكبير وكان مكانهُ خرائب

قدية . فرمى الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتحمى المسلمون عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان فتقدمت شواني العدو الى البرّ ما بين البرج الصغير والخراب التي كانت مكان البرج الكبير ونصبوا صفائنهم من الشواني الى البرّ . ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا في الجونة الى جهة الخراب لينصبوا السنجق على علوة اشارةً منهم انهم تملّكوا البلد . وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمةً بعد أخرى فهجمت فرقة من المسلمين مع الوالد (١) على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق . فلما نظر الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين فحمل منهم ذوو النخوات فانهزم من كان نزل من الفرنج وازدحموا على الصقائل فانقلب جم بعضها فغرق منهم جماعة وقُتل جماعة وانكسروا شرّ كسرة . واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين نفرٌ وجُرح جماعة . وكانوا قد كشفوا التسعيرة عشيّة يوم وصولها فاشعلوا النار ليلاً اشارةً لوصول الفرنج الى بيروت فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة الى دمشق فحضر يَسَلَك نائب الشام الى بيروت عشيّة يوم الواقعة وتبعتهُ عساكر الشام فكان وصولهم بعد فوات الامر ولم يلحقوا القتال ولم يروا غير الشواني في البحر على بُعد فهي راجعة الى بلادهم

ثمّ خلف الملكُ البرجُوان الجراكسةُ على مصر الملوكَ البحريين الاتراك سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) فحمل اهل بيروت على الراحة مدّة حتى كانت السنة ٨٠١هـ (١٣٩٨م) . فانّ متملّك قبرس المدعو بطرس (Pierre I de Lusignan) ذي لوسينيان كان قصد ان يسترجع مدينة الماغوصة (Famagouste) من جنويّة الذين كانوا افتتحوها سنة ١٣٧٢ في عهد بطرس الثاني . قال صالح بن يحيى بروي في تاريخه هذا الخبر بما حرفهُ (ص٥٥—٥٨) :

« فلمّا بلغ الجنويّة ذلك فجهزوا لياخذوا منهُ قبرس فاصلح الرّوادسة (اي فرسان رودس) بينه وبينهم على حكم ان يقوم لهم بمائة وعشرين الف دينار في نظير كفّهم على التسعيرة . فتوجّهت التسعيرة المذكورة الى العلايا (مدينة على ساحل بحر الروم) فلم يقدروا عليها فتوجّهت منها الى طرابلس وحماه دَمَرْداش (المحمّدي) نائبًا . فنزل الفرنج الى البرّ لكنّ المسلمين تكاثروا عليهم ومنعوهم الوصول الى المدينة فرجعوا الى مراكبهم مخذولين بالخيبة . ثم حضروا الى بيروت في العشرين من محرّم سنة ٨٠٦ (١٤٠٣م) فلمّا رآهم اهل بيروت همّوا بترحيل حريمهم واولادهم وامتعتهم فأُخليت بيروت من اهلها ولم يكن بها متزلٌ ولا عسكر مجرّد للحرب سوى امراء العرب ومعهم بعض جماعة . وكان قد توحّش خاطرهم لظنّهم انّ في التسعيرة خيولاً فخافوا من ذلك . فنزل الفرنج من الشواني الى البرّ في مكان يسمّى الصنيطيّة غربي البلد في الرابعة من النهار وتملّكوا البلد وخيموا واحرقوا الدار التي لنا على البحر والسوق القريبة من الميناء . وصار المسلمون يتجمّعون شيئًا فشيئًا وجعل اصحاب النخوات يهجمون على من تفرّد منهم في الازقة فقتلوا منهم جماعةً واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر . وحضر المتولي الامير يوسف التركماني

(١) يريد المؤلف صالح بن يحيى والدهُ يحيى

الكسروانيّ فاقام الفرنج في بيروت الى قرب العصر ثمّ رجعوا الى مراكبهم. وتتبّع المسلمون بقيّتهم

«وفي تلك الليلة توجّهوا الى صيدا وتوجهنا قبالتهم في البرّ. فلمّا قربوا من صيدا على مسافة دون ميل من البلد نزلوا الى البرّ. وكان قد اجتمع على صيدا العُشران وغيرهم ولم تجسر الفرنج على الدخول الى البلد. . . ثم بعد ذلك اليوم توجّهوا راجعين الى جهة بيروت قاصدين خرّ الكلب ليملأوا منه ماء. وعيّن ملكُ الامراء الاميرَ الكبيرَ سودونَ الظريف (نائب الكرك) ليتوجّه قبالة التعبيرة ومعه امراء الغرب فوجدوا التعبيرة متوجّهة الى جهة بلادهم. . . ومن جملة ما خبّأه الجنويّة المذكورون من بيروت حواصل بُحار لفرنج البنادقة بقيمة عشرة آلاف دينار. فباع البنادقة ذلك واقتضوا من الجنويّة نظيرها وازيد. وكان ملك الامراء قد رسم لمتولي بيروت ان يقطع رؤوس قتلى الفرنج وان يمرّ على ابواتهم مسطبةً على باب بيروت ويكتب عليها اسم ملك الامراء. وجهّز الرؤوس الى دمشق ثمّ الى مصر فحصل في انفس الذين قتلوا الفرنج غيرةٌ لنسبة المسطبة الى غيرهم فهدموها ليلاً واحرقوا ما كان بها من رسم الفرنج»

نرى من هذه الروايات انّ بيروت كانت معرّضةً اكثر من سواها لغارات العدوّ فما كانت تستغني عن مراكب حربيّة تصونها من جهة البحر لانها على الرغم من تلك الغزوات لم يزل موقعها مركزاً مهمّاً. وذلك ما حدا سابقاً بالامير سيف الدين تنكز نائب الشام الى ان يبني لها برجاً عُرف ببرج البعلبكيّة (يحيى بن صالح ٦١)

ولمّا تعيّن بيدمر الخوارزمي بعده كنائب الشام جدّد سور بيروت على جانب البحر جعل اوّلهُ من عند حارة بني الغرب واوصلهُ الى تحت برج تنكز وجعل بين السور والبرج باباً وركّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسُمّي باب السلسلة وعيّن لهُ قوماً يحرسونهُ

وكذلك كانوا اقاموا ايّامَ كاً اي طلائع في مقابلة العدو وذلك منذ اوائل الثامن للهجرة والرابع عشر للميلاد. قال صالح بن يحيى (ص ٦٢) :

«كانت جنود حلقة بعلبك تتجرّد الى بيروت ابدالاً يقيم كل بدل شهراً. وفي السنة ٧٠٦ه (١٣٠٦م) اغزوا التركمان بكسروان وتداركوهم بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود مملكة طرابلس فكانوا يغنمون من يستنكرونهُ ان يتعدّى دربند خرّ الكلب الا بورقة طريق اي وثيقة من المتولي او من امراء الغرب وجعلوا التركمان المذكورين ثلثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً

(قال) وكان الملك المظفر تقي الدين عمر الايوبي صاحب حماة قد ارتفق وقفاً على جماعة خيّالة ورجّالة برسم الجهاد وشرط عليهم بان يكونوا في اقرب المرافي الى دمشق. فلما استوطن المسلمون بيروت بعد الفتوح الاخير استقرّ اقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق .

وفي ايام السلطان الملك الظاهر برقوق عمّر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من ابراج القلعة الحربية فقرروا بو المحاسنين المذكورين . وعلى قرروه ايضاً لسرعة الدفاع عن بيروت أعلام نارية كانت تنبّه اهل دمشق باخبار بيروت في ليلة . كانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت الشيفة ومنه الى جبل بوارش في لبنان ومنه الى جبل يبوس بوادي التيم ومنه الى جبل الصالحية فقلعة دمشق فكانت النار للحوادث بالليل وحمام البطائق وهو حمام الرحّل السيّار للحوادث في النهار هذا فضلاً عن البريد لنقل الاخبار »

ومع تحصين بيروت اخذ المسلمون يهتمّون بتزيينها بالابنية والقصور الواسعة الفخيمة - لاسيما امراء العرب الذين سيأتي ذكرهم . ومن البنايات التي كان انشأها الامير تنكز في بيروت خانٌ كبير وحمّام وصفها ناصر الدين حسين بشعر رواهُ صالح ابن يحيى في تاريخ بيروت (ص ١٥٤ - ١٥٥)

وبعد خمود التجارة مدّةً في بيروت اخذت سوقها بالرواج . قال صالح (ص ٥٩) :

« ثم صارت بعض مراكب الفرنج تتردّد اليها قليلاً قليلاً . وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرص فيرسل صاحب قبرص ضمانهم في شهر نيسان كانوا له الى بيروت ثقلاً بعد اخرى . وكان لهذه الرسمة كُتب ... وعدة من التجار ساكنون فيها وفيها خانات وحمامات »

وقد ذكر كتبة الفرنج انه كانت البندقية في بيروت كنيسة كبيرة على اسم القديس مرقس شفيع بلادهم . واردف صالح :

« ثم تكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج فجعل عمال الدولة عليها ضرائب الواردات والصادرات وهي تبلغ جملةً كثيرة . وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشرف وشادّ (من مراتب ذلك الزمان) يوافيهم نائب دمشق والمتوفر عن المرتّبات يُحمل الى دمشق »

تلك كانت حالة بيروت في عهد الملوك المصريين المعروفين بالجراكسة . غير ان النكبات التي توالت على الشام في مطاوي القرن الخامس عشر من حروب ومجاعات واوبئة ادّت بهم الى ضنك عظيم وخمول . ثم اخذت القرصان ترصد المراكب القادمة من بلاد الفرنج فتأسر وكّابها وتستصفي بضائعها فلم تعُدْ تقدم الى سواحل الشام الّا بكل تحرّز واحتراس فزادت احوال بيروت بؤساً . ودامت الحال الى عهد السلطان سليم خان الاول الذي فتح مصر وابطل دولة الجراكسة ثم استولى على الديار الشامية سنة ١٥١٧ فدخلت بيروت كبقية المدن السورية في حوزة ملوك بني عثمان

(الما بقية)